

المصريين وبدأوا ينطقونها «المناخ»... (2) الحقيقة ان اصلها «رهمانج» عند ابن ماجد (69) وهو تحريف البحارين لكلمة «الراهنامج» التي جاء عنها في التاج 51/2 : «فارسية استعملها العرب واصلاها «راه تامه» ومعناه «كتاب الطريق»... وهو الكتاب الذي يسلك به الرابطة... في سفر البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها كالشعب ونحو ذلك» .

صناعة السيوف وما اليها

(1) الآنسك : لقد اصاب ادى شير القول بانها قريبة من «Ranga» بالسنسكريتية (الفارسية : آهك) ، والرصاص الابيض معروف الى الآن في الهند بذلك الاسم ، وهو جزء من كلمة «الاسرنج» - اصلها ان يكون «h'sang» (70) الا «سرخ» + «آنك» كما اورده ادى شير)

اما معدن الرصاص فيقول عنه مسعر بن مهلهل (القرن الرابع الهجري) : « انها (كله) اول بلاد الهند مما يلي الصين ، وانها منتهى مسير المراكب : ولا يتهيأ لها ان تجاوزها والا غرقت ،

الاقدار حتمت عليهم ان يقوموا بدور الوسيط في جلب البضائع الهندية والصينية وتوصيلها الى اوربا الى ان قدر لاوربا الاتصال مباشرة بالشرق الاقصى في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو لعمرى دور لعبه العرب لا بجرأة وكفاءة فحسب بل بامانة تركت اطيب الاثر واعمقه في نفوس السكان غير المسلمين لمختلف مناطق الهند الساحلية . فهذه الظروف تقرر علينا . كلما وجدنا في اللغات الاوربية كلمة تتعلق بالملاحة (67) او التجارة على ايدي العرب في المحيط الهندي ، ان نواصل البحث عن اصلها الهندي بعد ان نهدي الى شكلها المعرب في العربية ، ولعل في مقارنة الطرفين الاوربي والهندي ما يكشف لنا بعض ما غمض على المتأخرين من العرب انفسهم في بعض الاحيان .

فمثلا كلمة (Almanac) لم يشك احد في انها انتقلت الى اوربا عن العرب لكن حار الباحثون في الاهتداء الى اصلها فقالوا انه « المناخ » (محيط المحيط - ن و خ) او ان العرب الاندلسيين استعاروا كلمة

Ъ А Ъ ІХ ІЛЗІХЪ

(68) من

(67) لقد صرح السعودي : فيما يتعلق بالملاحة ، ان العرب حرصوا على الأخذ بالالفاظ المحلية في مختلف المناطق التي ترددوا عليها ، انظر الى قوله : « انما نعبّر بلفظة اهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم » المروج 332/1 (ايضا 343 : « انما نخبر عن عبارة كل بحر وما يستعملونه في خطابهم » .

ويلاحظ ايضا في هذا الصدد ان العرب لم يأخذوا الكلمات الهندية من اللغة السنسكريتية الفصيحة ، ولاهم اعتنوا بأشكالها الصحيحة في الكتابة ، بل انما أخذوها من افواه التجار وسكان المناطق الساحلية التي كانوا يترددون عليها ، ولا يخفى ان تلك المناطق كانت ولا تزال تسودها لهجات متعددة بل لغات مستقلة .

Hob.-Job. - «Almanack» (68)

Ferrand : Instructions Natives, Tome I ص 60 «رهمانج» - 88 «رهمانجات» - 76 (69)

«رهمانجا» .

واللبس مثل الذي نشاهده في اول هذه الكلمة كثير شائع فيما يتعلق بالكلمات الاعجمية التي في اولها حروف تقارب الالف واللام . فكلمة «انجر» (Anchor) مثلا اصلها بالفارسية «لنكر» (القاموس - نجر) ، اضاف العرب عليها الالف واللام (ال لنكر) ، ثم التبس عليهم الامر فظنوا ان اللام ليست من الحروف الاصلية (النكر) وقالوا «انجر» - وكذلك الرصاص من «اريز» (انظر ادى شير) ، والماس من «Adamas» (Periplus) ص 224 وانظر بزرك ص 128 «الادماس») بتمامه كلمة غير عربية والالف واللام من بنية الكلمة ، كذا في شفاء الفليل واللسان (ماس) عن ابن الاثير - وسيأتي الآنسك من «Ranga»

يلاحظ ايضا انهم كثيرا ما يحذفون الكاف والميم من الاول في التعريب ، انظر مثلا الرند = كرندة و «انباتي» نسبة الى كنبات و «انجاني» نسبة الى «منبج» واترج / ترنجج تعريب «ما تلنفا» - وكذلك الواو يسقط من الاول مثل «النج» من «valgu» وارز من «virizi»

Watt (70) ص 707 .

وبها قلعة يضرب بها السيوف القلمية . وهي الهندية العتيقة لا تكون في سائر الدنيا الا في هذه القلعة . . وليس في جميع الدنيا معدن الرصاص القلمي الا في هذه القلعة « (71) .

فالنسبة في «السيوف القلمية» و «الرصاص القلمي» (الفرنسية : Alkalap الى هذه انعمه بـ (72) وقد شهد الادريسي ايضا بأنها المعدن الوحيد للرصاص الابيض بالنسبة الى العالم اجمع في زمانه ، فانه يقول :

« وبهذه الجزيرة (كله) معدن الرصاص القلمي . وهو بها كثير صافي الجوهر ، والتجار يفشونه بعد خروجه عنها ، ومنها يتجر (يجهز) به الى جميع الارض » (73) .

ثم يظهر ان مثل هذا المعدن نجم في الاندلس ايضا فيما بعد ، فبدأ التجار يتجولون عن الهند اليها ، حتى اذا مضى زمن خلط الناس بين المعدنين كما في قول ياقوت :

« القلعة فيما زعم مسعر بن المهلهل بلد في اول بلاد الهند من جهة الصين ، واليه ينسب الرصاص القلمي والسيوف القلمية ، واقليم القلعة من كورة قلبرة بالاندلس ، وانا اظن الرصاص القلمي منسوب اليها او الى قلعة بالاندلس فانه من هناك يجلب » (74) ان شهادة مسعر بن المهلهل والادريسي ليست موضع الشك ، وكل ما افادنا ياقوت هو ان الرصاص الابيض كان في ايامه يجلب من الاندلس بعد ان كان يجلب من القلعة بـ (كله من ذي قبل . ولعل في الاخذ باسم « القصدير » - الذي يرادف الانك الا انه معرب عن اليونانية - ايضا دلالة على التحول المشار اليه من الشرق الى الغرب .

ثم انه يرجح عندي ان المراد ليس « القلعة بـ (كله» بل كلمة « قلعة » هي تعريب « كله » لا غير ، والمعدن المسمى « كله » باللغة المحلية انما كان واقعا على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملايو ،

وقد ذهب الباحثون الى ان « كله » توازي « Kedah » او « Kra » الحالية (75) .

وبلاحظ ان اهم ما اشتهرت به سيوف الهند جودة الصقل ، وهو عمل لا يتأتى الا بالانك الذي استأثرت القلعة بانتاجه ، اما الحديد اللازم لصناعتها فقد اورد الادريسي بشأنه ما يلي :

« ان بلاد سفالة (سفالة الزنج أي شرق افريقيا) يوجد في جبالها معادن الحديد الجيد الكثيرة ، واهل الرانج (الزانج ؟) وغيرهم من ساكني الجزائر المطيفة لهم يدخلون اليهم ويخرجونه من عندهم الى سائر بلاد السند وجزائره فيبيعونه بالثمن الجيد ، لان بلاد السند اكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد ، ومع ذلك وان كان الحديد موجودا في بلاد الهند ومعادنه بها ففي بلاد سفالة هو اكثر واطيب وأرطب ، لكن الهنديين يحسنون صنعه وتركيب اخلاط الادوية التي يسبكون بها الحديد اللين فيعود هنديا منسوبيا الى الهند ، وبها ديار الضرب للسيوف وصناعتهم يجيدونها فضلا عن غيرهم من الامم ، وكذلك الحديد السبتي (كذا وفي نسخة اخرى: السندي) والسرنديبي والبينماني كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة واحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلء ، ولا يوجد شيء من الحديد امضى من الحديد الهندي ، وهذا شيء مشهور لا يقدر احد على انكار فضيلته » (76)

هذا وقد كانت البيلمان (البيلمان) مركزا آخر هاما لصناعة السيوف تنسب اليه السيوف البيلمانية ، وكانت تقع على ملتقى حدود السند والهند كما يتضح مما ورد في شأنها في فتوح البادان للبلاذري ص 440 و 442 ، اما القول بانه « يشبه ان يكون (البيلمان) من ارض اليمن » (انظر البلدان لياقوت واقاموس « ب ل م ») فلا يقوم على سند .

(71) القزويني 69 وياقوت « القلعة » و « الصين » .

(72) المغرب للجواليقي ، تحقيق احمد محمد شاكر - ص 276 .

(73) دار الكتب المصرية ، جغرافيا رقم 150 ص 130 .

(74) المشترك والمفترق 357 .

(75) انظر دائرة المعارف الاسلامية « Kalah » و « Kal'i » .

(76) ص 108 - 109 . قارن ابن الوردي ، القاهرة 1328 هـ ، ص 51 .

الرمح

تلك هي قصة السيوف التي لم تزل تحمل نسبتها الى انهد كسماز لجودة الصنعة وحسن الصقل ، ولنتقل الآن الى الحديث عن الرماح التي حوت نسبتها الى الهند على مر الزمان ، الا انه يمكننا اذا معنا النظر ان نستشفها من وراء كلمات لا تزال تحمل سمات الغرابة والغربة مع انها كثيرا ما عدت عربية لا لشيء الا لعدم الاهتداء الى اصلها .

يتكون الرمح من جزئين : الاول هو النصل أو السنان ، والثاني هو القنّاء . وغنى عن البيان أن صناعة السنان متجانسة مع صناعة السيوف بل هما صناعة واحدة ، وعلى هذا يصبح من الطبيعي أن يغيب الظن بأن العرب ربما استعملوا الأسلحة المصنوعة في الهند الا انه لا يعدلنا من الدليل الإيجابي ما يرتفع بهذا الظن الى درجة اليقين ، فاننا نراهم يستعملون ببعض الكلمات الهندية للتعبيرات الدقيقة المتعلقة بهذه الصناعة . انظر الى كلمة « الخرص » تبدو كأنها دخيلة على مادة « خ ر ص » العربية . فالخرص تعني الجزء الاعلى الذي فيه الحد من السنان ، وهي بهذا المعنى توازي كلمة « Kirch » بملالم (Malayalam) إحدى اللغات الدكنية - ولأردوية أيضا ، ولعل أصلها في لغة جاوة وملايو « Kris, Kiris, Kres » (77) - وربما اطلقت الكلمة على القضيبي والرمح نفسه كما قال حميد وابن ثور : « عض الثقاف أنخرص الخطيا » (78) ولا يخفى أن هذه النسبة الى الخط هي أقوى ما يؤيد الأصل الهندي للرمح المنسوبة اليها لان الخط لم تكن الا مرفاً لسفن الواردة من الهند كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد .

أما الجزء الثاني ، وهو بلا شك أهم الجزئين فقد كان العرب شديدي الاهتمام بالقنا والانتقاء لها حتى أن الشعر العربي يزخر بأوصافها ونوعاتها الا أن كثرة استعمال العرب للاسماء المختلفة للقنّاء وما يتبعها وجريها على سنتهم مجرى الكلمات العربية في الاشتقاق وما الى ذلك جعل أصل تلك الأسماء نسياً منسياً . هذا مع أنه قد ثبت بصورة

Hob.-Job. - « Crease, Cris » (77)

(78) اللسان 8 / 287 .

Hob.-Job. - « Candy » (79)

فاطعة لا يتطرق اليها أي شك أن منبت القنا الذي كان العرب يعتمدون عليها لسد حاجتهم - وما أكثر تلك الحاجة - لم يكن غير الهند كما سنبين ذلك آنفاً بعد أن نسوق بعض المقدمات ونتعرض لبعض الملابس التي لا بد منها نظراً الى غموض الموضوع .

أولاً : القنا = قصب السكر . لا يخفى أن إطلاق القنا على هذا المعنى إنما هو على سبيل التبعية والمجاز . وأن كان ذلك مطابقاً للمألوف في اللغة السنسكريتية وبعض اللغات الهندية الأخرى . وعلى كل حال فالمرجح عند العلماء هو أن موطن قصب السكر الأصلي لا يتجاوز ما بين بنغالة والهند الصينية (79) والدليل على ذلك أن جميع منتجات قصب السكر اشتهرت في العالم بأسمائها الهندية وهاكها فيما يلي :

1 - Candy = الفارسية والعربية « قند »
= سنس « Khanda » وملكالم « Kandi » (79) .

2 - العربية « فانيد » = الفارسية « بانيد » =
سنس « Phanita » - فارن « Penidium » Med. Lat.
وقد ذكر ابن حوقل والبشاري الفانيد من أهم الصادرات من مدن السند : فنجبور ومولتان وطوران .

3 - Sugar = العربية « سكر » =
الفارسية « شكر » = البراكرتية « Sakkara »
/ سنس « Sarkara » .

ومن الطريف في هذا الضدد أن الهنود ، وأن كانوا أول من قام بإنتاج السكر ، سرعان ما بدأوا يستوردونه من الصين ومن مصر ، وذلك لأن الصينيين والعرب ، الذين نقلوا زراعة قصب السكر من الهند الى الصين والى مصر (ثم الى صقلية والاندلس) ، لم يلبثوا أن سبقوا الهنود في ابتكار وسائل جديدة للتكرير ، ففاق الصينيون في صنع سكر ناصع البياض بشكل قطع صغيرة ، كما أن المصريين اختلفوا بصنعه بشكل قطع كبيرة ، ولم تزل الهند تستورد ذبك الصنفين من السكر من

الصين ومن مصر الى مطلع القرن الماضي حتى انهما يعرفان الى الآن فى اسواق الهند باسم « صيني » و « مصري » على الترتيب (80) .
 ثانيا : القنا بمعنى الرمح . يلاحظ فى هذا الصدد ان هناك شيئا يشبه السكر كثيرا ما يتكون داخل القنا (Bamboo Sugar) يسمى عند العرب والفرس « الطباشير » وكان استعماله كدواء شائعا

جدا فى العصور الوسطى ، ومن المتفق عليه ان كلمة انطباشير انما هي منقولة عن سنس « Trakkshira » اي انها هندية الاصل (81) .
 ثم ان الخيزران يصفه العرب انفسهم بانه شجر هندي وهو عروق القناتة (انظر الصحاح والتاج « خزر ») افلا يكون القنا اذن شجرا هنديا ؟ والخيزران الهندي (82) هو الذي يتمثل به فى

(80) « Sugar » - Hobson-Jobson

ومما يشهد ببراعة المصريين فى هذا المضمار القطعة التالية منقولة عن ماركو بولو (Ramusio II, 44) :

« And before this city » (a place near Fu-chau) « came under the great Can these people knew not how to make fine sugar ; they only used to boil and skim the juice, which when cold, left a black paste. But after they came under the Great Can some men of Babylonia » (i.e., of Cairo) « who happened to be at the court proceeded to this city and taught the people to refine the sugar with the ashes of certain trees » - 1298 A.D.

ومجلة « اللسان العربي » تلاحظ ما يلي :

كان السكر يصنع فى شقي العروبة بافريقياسا : المغرب ومصر وقد حدثنا المقرئى انه كان بسمهود سبعة عشر حجرا لعصر القصب كما كان يعلوى عدة احجار (انخطط ج 1 ص 203) وكذلك فى قابس وجولوا (البكرى فى المسالك جزء افريقية والمغرب ص 17 و 32) .

وقد أكد ماس لاطري Latrie ان المغرب كان يصدر السكر فى القرن الثالث عشر الميلادى الى الفلاند والبندقية (علائق وتجارة افريقيا الشمالية ص 376) وقد نبه الحسن بن محمد الوزان المعروف - Léon l'Africain على وجود السكر بسوس قبيل السعديين ولكن الشرفاء السعديين هم الذين جلبوا اساليب تصفية هذا السكر وتبييضه فى معاصر ساهم الاسرى المسيحيون فى تأسيسها باكادير وخاصة ، سكساوة وشيشاوة (مستندات دو كاستر ج 1 ص 303) .

ويوجد نص رسالة موجهة من مولاي محمد بن عبد الغالب - المسلوخ - عن اذن والده الى ملك فرنسا مؤرخة من قصر الدار البيضاء (فاس الجديد) فى رجب 968 (مارس 1561 م) حول استعداد المغرب للسماح للملك شارل التاسع باحتكار سكر المغرب بشرط دفع ثمنه بالسعر المغربى مع زيادة نسبة فى المائة وكذلك اصدار النحاس المغربى لفرنسا طبقا لرغبة ملكها بشرط دفع ثمنه سلاحا وعتادا (السلسلة الاولى - السعديون ج 3 ص 746) .

ولما عجز الاوربيون المعجوبون لعصر قصب السكر فى معمل اكدال بمراكش وتصفيته واخراجه من القوة الى الفعل عن اتمام عملياتهم جلب محمد بن عبد الرحمن الصناع المهرة من مصر القاهرة (الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 556) .

واسس مولاي الحسن عام 1878 مصنعا للسكر بمراكش وكلفه ذاك نفقات باهظة. ولكن هذا المصنع احيل بعد سنوات الى مدبغة للجلود (كامبو ص 59) .
 وقد كان البلاطان الفرنسى والانجليزى يتنافسان فى القرون الاخيرة على اقتناء السكر المغربى المكرر لصفائه وجودته .

(المعجم التاريخى للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص 38) .

(81) « Tabasheer » - Hob.-Job.

(82) لقد عرف العرب ان بلاد الروم كانت تمتاز بمنابت الخيزران كما يقول النابغة الجعدي : « بلادهم بلاد الخيزران » (انظر اللسان - خزر) الا انه من المحقق انهم كانوا يجلبونه من الهند ويتمثلون بالهندي منه فى شدة اللون . كذا فى محيط المحيط - خزر . وقد اورد القزويني فى الآثار ص 38 عن كله : « بها منابت الخيزران منها يحمل الى سائر البلاد » .

(x) وقد كان اهل Magan اي عمان يستوردون الاخشاب من نفس هذه المنطقة وذلك اربعة آلاف سنة قبل المسيح - انظر : Wilson : The Persian Gulf, p. 27

شدة اللين ومنه قولهم : الخيزرى والخوزرى
والخيزلى = مشية فيها تفكك .

وربما اقترن اسم القنا بالقسط ما عدا الخيزران
عند الربانة والجغرافيين العرب كما سنرى ،
ومن المسلم به ان القسط او الكسط هندي بحث
(سنس « Kustha ») وانما نسبوه فى بعض
الإحيان الى ظفار باليمن لانه كان يجلب اليه من
الهند ، القاموس « ظفر » .

ولنبحث الآن عن المواضع التى كان العرب
يترددون عليها لجلب القنا منها . نجد انها لا تتجاوز
ساحل السند والساحل الغربى والجنوبى لمنطقة
الدكن بالهند (*) : فهذا قول ابن خرداذبه 62 :
« ومن السند يجيء القسط والقنا والخيزران »
ويقول ايضا : « ومن مهران الى اوتكين وهى اول
أرض الهند مسيرة اربعة ايام ، وفى هذه الارض
ينبت القنا فى جبالها والزرع فى اوديتها واهلها
عتاة مرده لصوص » - كذلك يقول ابن الفقيه 251 :
« خص الله بلاد السند والهند ب... القنى
والخيزران ... » - وهذه شهادة مسعر بن مهامل
يقول : « وخرجت الى سواحل البحر الهندي
متياسرا فسرت الى بلد يعرف بمدورقين منابت
غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير
وذلك ان القنا اذا جف وهبت عليه الريح احتك
بعضه ببعض واشتدت فى الحرارة الحركة فانقذحت
منه نار فربما احقرت منه مسافة خمسين فرسخا
او اكثر من ذلك ، فالطباشير الذى يحمل الى
سائر الدنيا من ذلك القنا . فاما الطباشير الجيد
الذى يساوي مثقاله مائة مثقال او اكثر فهو شيء
يخرج من جوف القنا اذا هزت وهو عزيز جدا ... »
ثم يقول عن مدينة كولم ايضا : « والخيزران والقنا
بها كثير جدا » (انظر ياقوت « الصين ») . كذلك
يقول الادريسي : « ومدينة تانة (بالقرب من
بومباي) جايلة ... وبجبالها وارضها ينبت القنا
والطباشير يتخذ فيها من اصول القنا ومنها يحمل
الى سائر البلاد من المشارق والمغرب » - ص 297 .
وبعد ان تفقدنا منابت القنا وجب علينا ان نقتفي
آثار نواخذة العرب لئرى اين تفرغ سفنهم حملتها

وهاك ما يقوله ابن سيده (المخصص 34/6) عن
« الرماح الخطية » اشهر الرماح عند العرب : (الخط
مرقا السفن بالبحرين *) ينسب اليها الرماح
وليست الخط بمنبت لها ولكنها مرقا السفن التى
تحمل القنا من الهند كما قالوا مسك دارين *)
وليس هناك مسك ولكنها مرقا السفن التى تحمل
المسك من الهند) .

ترى كيف ان القناة المطلوبة من منابتها بالهند
والتي ركب عليها خرص او سنان مصنوع فى مصانع
السيوف حول معادن الرصاص القلعي بالهند ، كيف
ان هذه القناة هى التى تصبح « رمحا خطيا » بمجرد
دخولها حدود جزيرة العرب ؟

السهمري :

والحديث عن « الخطي » يذكرنا على الفور بـ
« السهمري » و « الرديني » . لو رجع احد الى
اللفويين واصحاب المعاجم لوجدهم يقولون ان
السهمري نسبة الى سمهر والرديني نسبة الى ردينة
وهما زوجان كانا يقومان ببيع الرماح بالخط ، ولكن
المتبع للشعر العربي والمتأمل فى اقوال اللفويين
 واصحاب المعاجم انفسهم لا يلبث ان يتبين ان
السهمري يفاير الرديني تماما من حيث الصفات
النسوبة الى كل منهما ، فالسهمري يمتاز بصفتين
هما : - 1 - الاعتدال ، - 2 - الصلابة ،
اما الرديني فيتميز بصد الصلابة وهو اللدونة لانه
هو الذى يهتز دون السهمري . وعلى هذا فيا له من
تحديد الاختصاص بحيث يمارس الزوج والزوجة بيع
رماح من نوعين مختلفين - ولعل المفروض انهما
كانا يتخذان محليهما جنبا الى جنب فى سوق
الخط - بدون ان يطفى الواحد منهما على الآخر !
ويا لها من مراعاة للمناسبات والصلاحيات بحيث
يكون بيع الرماح الصلبة من حصة الزوج وبيع
الرماح اللدنة من نصيب الزوجة !! وما يزيد اقوالهم
ارتباكا كما يزيدنا ارتيابا ان احدا منهم على الاقل
- وهو الزبير بن بكار - ذهب الى ان سمهر كانت
قرية بالحيشة (انظر التاج حيث جاء ان الصاغاني
انكر هذا القول) كما ان بعضهم قال ان سمهر اسم
امراة كانت تقوم الرماح !!!

(*) ذكر Pliny اسم موضع Chateni يقع على سواحل الخليج هو الخط ولا شك ، (الدكتور
جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام 309/2) .

(*) Daden/Dirin = البحرين او جزيرة بالقرب منها - (Heeren, II, 230)

كبير عناء بعد ان حططنا الاغلال التي كانت تقيّد فكرنا . كفانا ان ننظر الى كلمة « Rattan » بالانجليزية هي اسم لنوع معين من الخيزران غاية في المتانة والجودة وتمتاز قناته اكثر من اي شيء آخر بالمرونة واللدونة ، انظر « Rattan » - (Hob.-Job) ومما لا يشك فيه ان هذه الكلمة بالانجليزية منقولة عن « Rotan » بلغة ملايو والهند الشرقية . فهل يستبعد ان تكون (ردينة) الحلقة الوسطى بين « Rotan » من جهة و « Rattan » من جهة اخرى ليس الا ؟

القنا :

لقد آن لنا ان ندون بعض الملاحظات عن اصل كلمة «القنا» . اننا رأينا ان العرب ، مع كثرة وصفهم للرمح ، لم يذكروا اي منبت للقنا في ديارهم . بل بالعكس اجمعت الادلة كلها على انهم كانوا يعتمدون على منابت القنا بالهند ، ولا يفوتنا في هذا المقام ان نذكر ما أورده الجاحظ (البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون 16/3) من ان الشعوب طعنوا في العرب بقولهم : « انما كانت رماحك من مران واستنكم من قرون البقر ... » - لعل مغزى هذا المطن لا يعدو ان العرب لم يجدوا في ديارهم ما يمكنهم من صنع الرماح بجزئها القناة والسنان - واخيرا يجب علينا ان لا نغفل اعتبار الاحوال الطبيعية اللازمة لنمو القنا وهي تنحصر في سفوح جبال تهطل عليها السماء مدارا ثلاثة أو اربعة أشهر متتالية في السنة . افيوجد مثل هذه الاحوال في جزيرة العرب او شرقيها وغربيها الا في السند والدكن اي الساحل الغربي والجنوبي للهند ؟ ويخيل الي ان قول الزبير بن بكار السالف الذكر (بان سمهر كانت قرية بالحيشة) يخفي وراءه حقيقة ثابتة وهي ان العرب في وقت من الاوقات اتخذوا من الحيشة بديلا من الهند ، مرجعهم الفضل ،

ان المهم في هذا كله هو ان الزوجين ، على حد تعبير اللغويين ، كانا يبيعان الرماح بالخط والخط ، كما رأينا آنفا ، لم تكن الا مرفا للسفن الواردة من الهند ، اذن فمن المؤكد ان السمهريات والردينيسات كانت رماحا هندية ، هذا بفض النظر عن من قام باعمال بيعها او توزيعها في الخط . افيستغرب بعد هذا ان يكون التجار العرب قد اخذوا اسمي الصنفين من الرماح - الصلب واللدن - من افواه التجار الهنود ؟ ان مثل هذا القياس يوافق مقتضى طبيعة المعاملات التجارية كما انه يصادف حرص العرب على تسمية الاشياء والبضائع التجارية باسمائها المحلية . فربما يكون سمهر اسما هنديا جابه العرب مع مسماه (اي الرماح الممتازة بالاعتدال والصلابة) الى الخط وطبعاً خفي امره على الناس لكونه غير عربي ، فلذلك لم يفقهوا غير انه انتشر بين العرب عن طريق ذلك المرفأ بالبحرين (83) .

ولعل القاريء الأريب يتبين في قول ياقوت الآتي تأييدا لجميع ما قدمنا آنفا . يقول ياقوت : « سمهر قرأت بخت أبي الفضل بن العباس بن علي الصولي المعروف بابن برد الخيار ... قال حدثني سليمان المدائني قال حدثني الزبير بن بكار قال الرماح السمهرية نسبت الى قرية يقال لها سمهر بالحيشة ... قلت انا وحدثني بعض من يوثق به ان هذه القرية في جزر من النيل (الأثار للقزويني ص 30 « جوف النيل ») يأتي من أرض الهند على رأس الماء كثيراً من القنا فيجمعه أهل هذه القرية ويستوقدون زواله ويبيعون جيده وهو معروف بأرض الحيشة مشهور - وقول من قال ان سمهر اسم امرأة كانت تقوم بعمل الرماح فانه كلف من القول وتخمين (**) » .

الرديني :

لكن انتفاء شخصية سمهر يستلزم أيضا عدم بقاء ردينة كرامة تخير في خطابها من يخلف في بيع الرماح الصلبة ، الا ان تلك مسألة لا تستدعي

(83) لم استطع الجزم بالاصل الهندي الا انه لفت نظري الكلمتان التاليتان المعبرتان عن الاعتدال والصلابة : SAMA, even, level... straight - Williams : Sanskrit-English Dictionary, p. 1066. KHARA, hard, harsh, rough... dense - Ibid., p. 74

(**) هذا ونجد مثالا آخر لهذه الاسطورة بالذات فيما يتعلق بكلمة « السندرة » (انظر ص 68 الآتية) وقد ادرك القتيبي ان القول « السندرة امرأة كانت تباع القمح وتوفي الكيل » مجازفة لجأ اليها الذين وقفوا حيارى امام كلمة اعجمية الفوا استعمالها وعرفوا مدلولها لكن لم يدروا ما اصلها .

أنت قوسا نعت ذي انتقاء
جاء بها جالس بروصاء
بعد اعتياد منه وانتصاء
كافية الطول على انتهاء
مجلوزة الأكمب في استواء
سالمة من آسن السياء

(البيان والتبيين 93/3 - 94)

وانظر أيضا الى قول آخر للرقاشي في صفة
القناة التي تبرى منها القسي :

من شقق خضر بروصيات
صفر اللحاء وخوفيات
جدلن حتى اذن كالحيات
رشائقا غير مؤبنات
انفهن متمطرات
عمرو بن عصفور (85) على استنبات

(المصدر نفسه 71 / 3)

لا يخفى ان بروصا كما وردت الكلمة مضبوطة
في القطعة الثانية والتي جعلها الشاعر « بروصاء »
- « بروصاء » بالضاد المعجمة تحريف من الكاتب
ليس الا - في القطعة الاولى لضرورة الشعر - كانت
ميناء هامسا على ساحل كجرات فوق بمباي حاول
العرب عدة مرات ، قبل فتحهم للسند وابان حكمهم
لها ، الاستيلاء عليها (راجع فتوح البلدان للبلاذري)
وهي لا تزال مدينة معروفة باسمها القديم
« Bharoch »

والشريح بمعنى العود يشق منه قوسان (انظر
قول الشماخ : « شرائج النبع براها القواس »)
هي « chari » بالجميم علامة المعجمة بأخرها .
ومنه يقال لخطي نيري البرد شريجان .

ولا ننسى كيف ان ياقوت خلط بين كله (القلعة)
وبين معدن القصدير بالاندلس لاسباب متشابهة (*)
اذن اهل كلمة « قنا » نفسها معربة من
الهندية « ganna » البراكرتية « gandoo »
السنكرتية « gandaka » . (*)

الوشيج :

اذا كان « الخطي » هندية فهل من الغريب ان
يكون « الوشيج » - الذي لا يثبت الخطي الا هو -
هنديا ايضا ؛ ان اصل هذه الكلمة هو (Vansha)
والجيم في الآخر علامة المعجمة لا غير . وقد عهدنا
العرب دائما يظهرون مكة قوية للاحظة الطبيعة
بالدقة والاتقان وان كلمة الوشيج وما اشتق العرب
منها الا دليل على التثر بالطبيعة واستخلاص
المعاني العامة من مظاهرها فان كل من اتفق له ان
يتمتع بنظرة الى منبت القنا ليقدر تمام التقدير ان
اهم ما يروع المرء من اشجاره هو التفاف سيقانها
وتعانق اغصانها ، ومنه قولهم الوشيج بمعنى
القرباة ، والوشج بمعنى الاشتباك . واذا كان احد في
شك من هذا فليتنظر الى كلمة « البيش » (84)
لا ريب في انها هندية معربة اصلها (Visha/Bisa)
استخلص العرب من شجرته معنى الخضرة
والنضارة فقالوا « بيش الله وجهه » ولاحظوا ايضا
ان شجرة البيش شديدة الثبات والتأصل فقالوا
« اباش الشجرة » .

القسي

اما فيما يتعلق بالقسي ، فقد كفانا الجاحظ
مؤنة البحث عن اصلها بقوله : « وكل قوس بندق فانما
جيء بقناتها من بروص ومدح ببريها وصنعتها عصفور
القواس . وقال الرقاشي :

(*) انظر ص 34 السابقة .

(*) Nainar, S. Muhammad Husayn : Arab Geographers' Knowledge of Southern India, Madras, 1942, p. 193, note 29, vide Platts : Hindustani Dictionary.

(84) « البيش وهو نبت لا يوجد الا بالهند » كذا في الآثار للقزويني ص 85 .

(85) لو كان سمير مثقفا للرماع او يباعا لها لكان من الواجب ان نظفر من شاعر من الشعراء القدماء
باشارة صريحة الى ذلك مثل ما نجد امامنا بخصوص عمرو بن عصفور ، ولكننا بخلاف ذلك
نراهم ، حسبما اعرف ، دائما يذكرون « السميرية » و « الردينية » و « رماح ردينة » (الشماخ ،
ديوانه ص 98) من غير ان يزيدوا شيئا ثم يجيء اللقويون فيفسرون هذه النسبة كما بدا لهم
بدون أي سند على نحو ما فصلنا الكلام عنه .